أميركا المتشظِّية

الكورونا وتداعياته على وحدة الولايات المتحدة

واد ديفيس[*]

تتناول هذه المقالة لعالم الانثروبولوجيا الإنكليزي واد ديفيس الآثار المدوّية التي سبّبها انتشار وباء كوفيد 19 على الهيكل البنيوي للامبراطوريّة الأميركيّة. ولعلّ أبرز ما ذهب إليه الكاتب في مسعاه التحليلي هو أثر الوباء في توسيع الفجوات العرقيّة والدينيّة والاثنيّة، وانعكاس ذلك على وحدة أميركا نفسها. الأمر الذي يطرح أسئلة في غاية الخطورة حيال تفكّك أميركا في المستقبل.

وهذا ما يعالجه ديفيس في مقالته هذه.

المحرّر

لم تعرف حياتنا مثل هذه الظاهرة العالميّة؛ إذ لأوّل مرّة في تاريخ العالم، اجتمعت البشريّة كلّها، مسترشدةً بالوصول غير المسبوق للتكنولوجيا الرقميّة، وركّزت على التهديد الوجودي نفسه، واستهلكتها المخاوف والشكوك نفسها، وتوقّعت الأمر نفسه بشغف حتى الآن وعود غير محقّقة للعلوم الطبية.

خلال موسم واحد، انكفأت الحضارة الإنسانيّة عن طريق كائنٍ طفيليٍّ مجهريٍّ أصغر بمقدار 1000 مرّة من حبّة ملح. راح كوفيد 19 يغزو أجسادنا الماديّة وكذلك الأسس الثقافيّة لحياتنا، ومجموعة أدوات المجتمع والتّواصل التي تمثّل للإنسان ما تمثّله المخالب والأسنان بالنسبة للنمر.

---

*ـ عالم بريطاني في الانثربولوجيا - ويشغل ويد ديفيس كرسي القيادة في الثقافات والنظم البيئية المعرضة للخطر في جامعة كولومبيا البريطانية. تشمل كتبه الحائزة على جوائز «Into the Silence» و «The Wayfinders» صدر كتابه الجديد «ماغدالينا: نهر الاحلام» من قبل كنوبف.

ـ العنوان الأصلي للمقالة: covid-19-end-of american-era-wade-davis-1038206-

ـ نقلاً عن: https://www.rollingstone.com/politics/political-commentary

لقد ركّزت تدخّلاتنا حتى الآن بشكل كبير على التخفيف من معدّل الانتشار، وتسطيح منحنى المراضة. لا يوجد علاج في متناول اليد ولا يقين من وجود لقاح في الأفق القريب. والنتيجة الأوّليّة أنّ فايروس كورونا قضى على 100000 مواطن أميركي خلال أربعة أشهر. هناك بعض الأدلّة على أنّ العدوى الطبيعيّة قد لا تنطوي على المناعة، ما يجعل البعض يتساءل عن مدى فعاليّة اللّقاح، حتى على افتراض إمكان العثور على اللّقاح فيجب أن يكون هذا اللّقاح آمنًا. وإذا لم يتمّ تحصين سكان العالم، فإنّ المضاعفات المميتة التي يتعرّض لها شخص واحد من بين كلّ ألف شخص ستؤدّي إلى موت الملايين.

الواضح أنّ الأوبئة هي وسيلة لتغيير مجرى التاريخ. في القرن الرابع عشر، قتل الطاعون الأسود ما يقرب من نصف سكان أوروبا. وأدّت ندرة العمالة إلى زيادة الأجور. بلغت التوقّعات المتزايدة ذروتها في ثورة الفلاّحين عام 1381، وهي نقطة انعطاف شكّلت بداية نهاية النّظام الإقطاعي الذي سيطر على أوروبا في العصور الوسطى لألف عام.

سوف نتذكر جائحة كورونا باعتبارها لحظةً تاريخيةً، وحدثًا أساسيًّا لن تتكشّف أهمّيته إلا في أعقاب الأزمة. وستكون هذه الحقبة أشبه بالحقبة التي شهدت اغتيال الأرشيدوق فرديناند عام 1914، وانهيار سوق الأسهم عام 1929، وصعود أدولف هتلر عام 1933، والتي أصبحت علامات مرجعيّة أساسيّة للقرن الماضي، وكلّها تنذر بنتائج أكبر وأكثر أهميّة.

لا تكمن الأهميّة التاريخية لـكوفيد 19 فيما يعنيه في حياتنا اليوميّة. ذاك أنّ التغيير هو الثابت الوحيد عندما يتعلّق الأمر بالثّقافة. في العادة جميع النّاس يلتقون في الأماكن جميعها وفي الأوقات جميعها مع إمكانيات جديدة للحياة. ونظرًا لأنّ الشركات تلغي المكاتب المركزيّة أو تقلّص حجمها، يعمل الموظّفون من المنزل، ويصبح السّفر بالطائرة أكثر إشكاليّة وبؤسًا، وسوف يتكيّف النّاس مع هذه الوضعيّة، كما فعلنا دائمًا. ربمّا تكون سيولة الذّاكرة والقدرة على النسيان هي أكثر السّمات المؤلمة بين أبناء الجنس البشري. وكما يؤكّد التاريخ، فإنّ ذلك يسمح بالتّصالح مع أيّ درجة من التّدهور الاجتماعي أو الأخلاقي أو البيئي.

من المؤكّد أنّ عدم اليقين المالي سيلقي بظلاله على الأوضاع العالميّة كلّها. وسوف يكون التحليق فوق الاقتصاد العالمي لبعض الوقت بمثابة إدراك واقعيّ بأنّ أموال دول الكرة الأرضيّة جميعها لن تكون كافية أبدًا لتعويض الخسائر التي تكبّدتها عندما يتوقّف عالم بأكمله عن العمل، حيث يواجه العمّال والشركات في كلّ مكان الاختيار بين البقاء الاقتصادي والبيولوجي.

تهافت سمعة الدولة العظمى

نظرًا إلى أنّ هذه التحوّلات والظروف ستؤدّي إلى عدم الاستقرار. وما لم يكن هناك انهيار اقتصادي كامل، فلا يمكن لأحد أن يبرز كنقطة تحوّل في التاريخ. ولكن ما يفعله الوباء بالتأكيد هو التأثير المدمّر تمامًا على سمعة الولايات المتحدة الأميركية ومكانتها الدولية.

في موسم مظلم من الأوبئة، كشف كورونا وهم الاستثناء الأميركي. ففي ذروة الأزمة، ومع وفاة أكثر من 2000 شخص كلّ يوم، وجد الأميركيون أنفسهم أعضاء في دولة فاشلة، محكومة من نخبة حكوميّة مختلّة وغير كفؤة، ومسؤولة بالتالي إلى حدّ كبير عن معدّلات الوفيات التي أضافت رمزًا مأساويًّا لمطالبة أميركا بالتفوّق في العالم.

لقد شعر المجتمع الدولي وللمرة الأولى بأنّه مضطرّ لإرسال مواد الإغاثة إلى واشنطن. ولأكثر من قرنين من الزمان، ذكرت الإيرلندية تايمز، أنّ الولايات المتحدة أثارت مجموعة واسعة جدًا من المشاعر في بقية العالم: الحب والكراهية، الخوف والأمل، الحسد والازدراء، الرهبة والغضب. ولكن هناك عاطفة واحدة لم يتم توجيهها أبدًا تجاه الولايات المتّحدة حتى الآن هي "الشفقة".

تدلّ التجارب التاريخيّة على أنّ كلّ مملكة تولد لتموت. ولكن لا توجد إمبراطوريّة تدوم طويلاً، حتى لو توقّع البعض زوالها. كان القرن الخامس عشر ملكًا للبرتغاليين، والقرن السادس عشر لإسبانيا، والقرن السابع عشر للهولنديين. وقد حظيت فرنسا بالمركز الثامن عشر وبريطانيا بالمركز التاسع عشر. كما حافظ البريطانيون، الذين أفلسوا بسبب الحرب العظمى، على التّظاهر بالهيمنة في أواخر عام 1935، عندما وصلت الإمبراطورية إلى أقصى امتداد جغرافي لها. وبحلول ذلك الوقت، بطبيعة الحال، كانت الشعلة قد مرّت منذ فترة طويلة إلى متناول أميركا.

في عام 1940، ومع اشتعال النيران في أوروبا، كان جيش الولايات المتّحدة أصغر من جيش البرتغال أو بلغاريا. وفي غضون أربع سنوات، كان 18 مليون رجل وامرأة يعملون بالزّي العسكري، مع ملايين آخرين يعملون في نوبات مزدوجة في المناجم والمصانع الأمر الذي جعل أميركا، كما وعد الرئيس روزفلت، ترسانة الديمقراطية.

عندما سيطر اليابانيون بعد ستة أسابيع من بيرل هاربور على 90 في المئة من إمدادات المطّاط في العالم، أسقطت الولايات المتحدة حدّ السرعة إلى 35 ميلاً في الساعة لحماية الإطارات، وبعد ذلك، وفي خلال ثلاثة أعوام، استطاعت أن تبدأ من الصفر بإنتاج المطاط الصناعي الذي ساعد

الحلفاء في دحر النازيين. وفي ذروتها، أنتجت شركة Willow Run Plant التابعة لهنري فورد طائرة Liberator B-24 كل ساعتين، على مدار الساعة. كما قامت أحواض بناء السّفن في لونغ بيتش وسوساليتو بالتعديل على سفن ليبرتي بمعدّل اثنين في اليوم لمدّة أربع سنوات؛ وكان السّجل عبارة عن سفينة بُنيت في أربعة أيام و15 ساعة و29 دقيقة. قام مصنع أميركي واحد، وهو مصنع Chrysler's Detroit Arsenal، ببناء عدد أكبر من الدبابات مقارنة بالرايخ الثالث بأكمله.

في أعقاب الحرب، ومع هزيمة أوروبا واليابان، شكّلت الولايات المتحدة التي تضمّ 6 في المئة من سكان العالم نصف الاقتصاد العالمي، بما في ذلك إنتاج 93 في المئة من جميع السيارات. وقد أدّت هذه الهيمنة الاقتصادية إلى نشوء طبقة وسطى نابضة بالحياة، وهي حركة نقابيّة سمحت لعائل واحد مع تعليم محدود بامتلاك منزل وسيارة، وإعالة أسرة، وإرسال أطفاله إلى مدارس جيّدة. لم يكن عالمًا مثاليًّا بأيّ حال من الأحوال، لكن الثّراء سمح بهدنة بين رأس المال والعمل، ومعاملة بالمثل للفرص في وقت النّمو السريع وتراجع عدم المساواة في الدخل، الذي يتميّز بارتفاع معدّلات الضرائب على الأثرياء، الذين لم يكونوا بأيّ حال من الأحوال المستفيدين فقط من العصر الذهبي للرأسمالية الأميركية.

ثمن الليبرالية

الحريّة والغنى كان لهما ثمن. لم تتخلَّ الولايات المتّحدة رغم النّصر في الحرب العالمية الثانية عن إنتاج السلاح. حتى يومنا هذا، تنتشر القوّات الأميركية في 150 دولة، منذ سبعينيات القرن الماضي. وفي حين لم تدخل الصين في حرب ولو مرّةٍ واحدةٍ. لم تعِشْ الولايات المتحدة يومًا في سلام. أشار الرئيس جيمي كارتر مؤخّرًا إلى أنّه في تاريخها البالغ 242 عامًا، تمتّعت أميركا بـ 16 عامًا فقط من السلام، ما يجعلها، كما كُتبَ، «أكثر الدول حروبًا في تاريخ العالم. منذ عام 2001، أنفقت الولايات المتحدة أكثر من 6 تريليونات دولار على العمليات العسكرية والحرب. وفي غضون ذلك، بنت الصين أمّتها، حيث كانت تصبّ كلّ ثلاث سنوات من الإسمنت أكثر ممّا فعلت أميركا في القرن العشرين بأكمله.

عندما كانت أميركا تراقب العالم، عاد العنف إلى الوطن. في يوم النّصر السادس من يونيو عام 1944، كان عدد قتلى الحلفاء 4.414؛ في عام 2019، قتل العنف المنزلي بالأسلحة النارية عددًا كبيرًا من الرجال والنساء الأميركيين بحلول نهاية أبريل. بحلول شهر يونيو من ذلك العام، تسبّبت البنادق التي في أيدي الأميركيين العاديين بوقوع ضحايا إصابات أكثر ممّا عانى منه الحلفاء في

نورماندي في الشهر الأوّل من الحملة التي استهلكت القوّة العسكرية لخمس دول.

هنالك أكثر من أيّ دولة أخرى، قامت الولايات المتحدة في حقبة ما بعد الحرب بتكريم الفرد على حساب المجتمع والأسرة. ما تمّ اكتسابه من حيث التنقّل والحريّة الشخصيّة جاء على حساب الهدف المشترك. في مساحات شاسعة من أميركا، فقدت الأسرة كمؤسّسة أسسها. بحلول الستينيات، كانت 40 بالمئة من الزيجات تنتهي بالطلاق. ستة في المئة فقط من المنازل الأميركية كان أجدادها يعيشون تحت سقف الأحفاد نفسه؛ تم التخلي عن الشيوخ في دور المسنين.

مع شعارات مثل « 7/24» التي تحتفل بالتفاني الكامل لمكان العمل، استنفد الرّجال والنّساء أنفسهم في وظائف عزّزت عزلتهم عن أسرهم. على سبيل المثال، يقضي الأميركي العادي أقل من 20 دقيقة يوميًّا في التّواصل المباشر مع طفله. بحلول الوقت الذي يبلغ فيه الشاب 18 عامًا، يكون قد أمضى عامين كاملين في مشاهدة التلفزيون أو التحديق في شاشة الكمبيوتر المحمول، ما يساهم في انتشار وباء السمنة الذي وصفه رؤساء الأركان بأزمة الأمن القومي.

نصف الأميركيين فقط أبلغوا عن وجود تفاعلات اجتماعيّة ذات مغزى وجهًا لوجه على أساس يومي. تستهلك الدولة ثلثي إنتاج العالم من الأدوية المضادة للاكتئاب. كان انهيار عائلة الطبقة العاملة مسؤولاً جزئيًّا عن أزمة المواد الأفيونيّة التي حلّت محلّ حوادث السيارات باعتبارها السبب الرئيسي لوفاة الأميركيين دون سن الخمسين.

جذور هذا التحوّل والانحدار عائدة إلى هوّة آخذة في الاتّساع بين الأميركيين الذين يملكون القليل أو لا شيء. توجد فوارق اقتصاديّة في جميع الدول، ما يخلق توتّرًا يمكن أن يكون مدمّرًا مثل عدم المساواة وتوزيع الثروة غير العادلة. ومع ذلك، في أيّ عدد من الأوضاع، يتمّ تخفيف أو حتى إسكات القوى السلبية التي تمزّق المجتمع إذا كانت هناك عناصر أخرى تعزّز التضامن الاجتماعي – الإيمان الديني، وقوة الأسرة وراحتها، وفخر التقاليد، والإخلاص للأرض، روح المكان.

ولكن عندما يتبيّن أنّ جميع اليقينيات القديمة أكاذيب، وعندما يتمّ تحطيم الوعد بحياة جيّدة لأسرة عاملة مع إغلاق المصانع وقادة الشركات، الذين يزدادون ثراءً يومًا بعد يوم، ويعملون في السفن في الخارج، ينكسر العقد الاجتماعي بشكل لا رجعة فيه. فعلى مدى جيلين، احتفلت أميركا بالعولمة بكثافة أيقونيّة، مع أنّ -كما يرى أي رجل أو امرأة عاملة- الأمر لا يعدو كونه رأس مال يتجوّل بحثًا عن مصادر عمل أكثر رخصًا.

لسنواتٍ عديدة، ظلّ الحنين إلى الخمسينيات من القرن الماضي يحكم ذهنيّة أولئك الذين ينتمون إلى اليمين المحافظ في الولايات المتحدة. وهذا يعود إلى تبرير شعورهم بالخسارة والتخلّي، وخوفهم من التغيير، واستيائهم المرير، وازدرائهم المستمر للحركات الاجتماعية في الستينيات، وخصوصًا في زمن التطلّعات الجديدة للنساء والمثليين وذوي البشرة الملوّنة. في الحقيقة، على الأقل من الناحية الاقتصادية، كانت دولة الخمسينيات تشبه الدنمارك بقدر ما تشبه أميركا اليوم. كانت معدّلات الضرائب الهامشية للأثرياء 90%. كانت رواتب الرؤساء التنفيذية، في المتوسط، أكثر من عشرين ضعفًا مقارنةً مع رواتب موظّفي الإدارة الوسطى.

اليوم، غالبًا ما يكون الرّاتب الأساسي لمن هم في القمّة 400 مرّة ضعف رواتب موظفيهم، بالإضافة إلى الكثير من الكسب الأكبر في خيارات الأسهم والامتيازات. تسيطر النّخبة التي تبلغ نسبتها 1% من الأميركيين على 30 تريليون دولار من الأصول، بينما يمتلك النّصف السفلي ديونًا أكثر من الأصول. أغنى ثلاثة أميركيين يملكون أموالاً أكثر من أفقر 160 مليون. تمتلك خمس الأسر الأميركية بالكامل صافي ثروة صفرية أو سلبية، وهو رقم يرتفع إلى 37 بالمئة عند الأسر السوداء. متوسط ثروة الأسر السوداء هو عُشر ثروة البيض. الغالبية العظمى من الأميركيين – البيض والسود – جرى اقتطاع أجزاء من رواتبهم من الإفلاس. ذلك على الرغم من أنّهم يعيشون في دولة تحتفل بأنّها الأغنى في التاريخ، وهكذا بدا أنّ معظم الأميركيين يعيشون على أسلاك عالية، دون شبكة أمان تسمح لهم بالسقوط.

الوباء يغذّي مجتمع البطالة المفتوحة

مع اجتياح كورونا للولايات والمدن الأميركية فقد نحو 40 مليون مواطن وظائفهم، وتم إغلاق 303 مليون شركة، بما في ذلك 41% من جميع الشركات المملوكة للسود. الأميركيون السود، الذين يفوق عددهم بشكل ملحوظ البيض في السجون الفيدرالية على الرغم من كونهم 13 في المئة فقط من السكّان، يعانون من معدّلات عالية بشكل صادم من الاعتلال والوفيات، ويموتون بما يقرب من ثلاثة أضعاف معدّل الأميركيين البيض. القاعدة الأساسيّة للسياسة الاجتماعية الأميركية – لا تدع أيّ مجموعة عرقيّة تنزل إلى ما دون السّود، أو تسمح لأيّ شخص أن يعاني من المزيد من الإهانات - كانت صحيحة حتى في حالة الوباء، كما لو أنّ الفيروس كان يأخذ إشاراته من التاريخ الأميركي.

إنّ كوفيد19- لم يضع أميركا في مرتبة منخفضة، وإنّما كشف ببساطة ما تمّ التخلّي عنه منذ فترة

طويلة. ومع تكشّف الأزمة، تمّ تسجيل وفاة أميركي كلّ دقيقة من كلّ يوم، ولم تتمكّن الدولة من إنتاج الأقنعة الورقيّة أو المسحات القطنيّة الضرورية لدرء المرض.

مع تحرّك عدد من الدول بسرعة لاحتواء الفيروس، تعثّرت الولايات المتحدة بسبب الإنكار، كما لو كانت عمياء عن عمد. ومع وجود نسبة وفيّات تقلّ عن أربعة في المئة من المصابين في العالم، سرعان ما سجّلت الولايات المتحدة نسبة تفوق الخمسة في المئة من الوفيات. كانت النسبة المئوية لضحايا المرض الأميركيين الذين ماتوا ستة أضعاف المتوسّط العالمي. لم يتسبّب تحقيق أعلى معدل للمرض والوفيات في العالم في إثارة الخجل، بل أنتج المزيد من الأكاذيب والتغاضي عن كبش الفداء، والتفاخر بعلاجات معجزة مشكوك فيها.

بينما استجابت الولايات المتحدة للأزمة مثل دكتاتورية وعاء القصدير الفاسد، انتهز الديكتاتوريون الحقيقيون في العالم الفرصة للاستيلاء على الأرض المرتفعة، مستمتعين بشعور نادر من التّفوّق الأخلاقي. جرى هذا على وجه الخصوص في أعقاب مقتل جورج فلويد، في مينيابوليس. زعيم الشيشان الأوتوقراطي، رمضان قديروف، عاتب أميركا على «انتهاكها الخبيث لحقوق المواطنين العاديين». واعترضت الصحف الكورية الشمالية على «وحشية الشرطة» في أميركا. وإلى ذلك فقد أدّى أداء ترامب والأزمة الأميركية إلى صرف الانتباه عن سوء تعامل الصين مع التفشّي الأوّلي في ووهان، ناهيك عن تحرّكها لسحق الديمقراطية في هونغ كونغ. عندما أثار مسؤول أميركي قضيّة حقوق الإنسان على تويتر، ردّ المتحدّث باسم وزارة الخارجية الصينية، متذرعًا بقتل جورج فلويد، بعبارة قصيرة واحدة، «لا أستطيع التنفس».

قد يكون من السهل رفض هذه الملاحظات ذات الدّوافع السياسيّة. لكنّ الأميركيين لم يقدّموا لأنفسهم أي خدمة. جعلت عمليتهم السياسية من الصعود إلى أعلى منصب في الأرض وصمة عار وطنيّة. وكما قال كاتب بريطاني ساخرًا، «كان دائمًا أناس أغبياء في العالم والكثير من الأشخاص السيئين أيضًا. لكن نادرًا ما كان الغباء قدرًا جدًا، أو قذرًا جدًا.

يعمل الرئيس الأميركي لكي يحفظ ولايته الثانية، على زرع الاستياء، وشيطنة خصومه، وإضفاء الشرعية على الكراهية. وأداته الرئيسية في الحكم هي الكذب. واعتبارًا من 9 يوليو 2020، بلغ العدد الموثّق لتحريفاته وأقواله الكاذبة 20.055. إذ اشتهر رئيس أميركا الأوّل، جورج واشنطن، بأنّه لم يستطع أن يكذب، وأمّا الرئيس الحالي لا يمكنه التعرّف على الحقيقة، كما قال أبراهام لنكولن، هذا القزم المظلم لرجل يحتفل بالخبث للجميع، والصدقة من أجل لا شيء.

على الرغم من كونه سيئًا، إلا أنّ ترامب ليس هو السبب في انحدار أميركا بقدر ما هو نتاج انحدارها. وبينما هم يحدّقون في المرآة ولا يدركون سوى أسطورة استثنائهم، يظلّ الأميركيون تقريبًا غيرَ قادرين على رؤية ما حدث بالفعل لبلدهم. الجمهورية التي عرّفت التدفّق الحرّ للمعلومات على أنّه دم الحياة للديمقراطية، تحتلّ اليوم المرتبة 45 بين الدول عندما يتعلّق الأمر بحريّة الصحافة. في الأرض التي رحّبت ذات يوم بالجماهير المحتشدة في العالم، يفضّل عدد أكبر من الناس اليوم بناء جدار على طول الحدود الجنوبية بدلاً من دعم الرعاية الصحيّة وحماية الأمهات والأطفال غير الشرعيين الذين يصلون يائسين على أبوابها. في التخلّي التام عن الصالح الجماعي، تُعرّف قوانين الولايات المتحدة الحريّة على أنّها حقّ الفرد غير القابل للتصرف في امتلاك ترسانة شخصيّة من الأسلحة، وهو حقّ طبيعيّ يتفوّق حتى على سلامة الأطفال؛ في العقد الماضي وحده، تمّ إطلاق النار على 346 من الطلاب والمدرّسين الأميركيين في أرض المدرسة.

إنكار الفرد وتشظي المجتمع

إنّ عبادة الفرد الأميركيّة لا تنكر المجتمع فحسب، بل تنكر فكرة المجتمع ذاتها. لا أحد يدين بأيّ شيء لأحد. يجب أن يكون الجميع مستعدين للقتال من أجل كلّ شيء: التعليم والمأوى والغذاء والرعاية الطبية. ما تعتبره كلّ ديمقراطية مزدهرة وناجحة حقوقًا أساسيّة ـ رعاية صحيّة شاملة، والوصول المتساوي إلى تعليم عام جيد، وشبكة أمان اجتماعي للضعفاء، وكبار السن، والمفككين ـ ترفض أميركا صفة الانغماس الاشتراكي، كما لو كان هناك العديد من علامات الضّعف.

كيف يمكن لبقيّة العالم أن يتوقّع من أميركا أن تهدّد أمن العالم – تغيّر المناخ، وأزمة الانقراض، والأوبئة- عندما لم يعد لدى البلد إحساس بالهدف الحميد، أو الرفاه الجماعي، حتى داخل مجتمعه الوطني؟ فالوطنية المغلّفة بالأعلام ليست بديلاً عن الرحمة. الغصب والعداء لا يضاهيان الحب. أولئك الذين يتوافدون على الشواطئ والحانات والتجمعات السياسية، ويُعرّضون مواطنيهم للخطر، لا يمارسون الحريّة؛ إنّهم يظهرون، كما لاحظ أحد المعلّقين، «بضعف إرادة الشعب وافتقاره إلى كلّ من المسؤولية والأخلاق لتحمّل الوباء والثبات على دحره». يقودهم دونالد ترامب، محارب، كاذب ومخادع، رسم كاريكاتوري بشع لرجل قوي، مع العمود الفقري لثور.

على مدى الأشهر الماضية من العام 2020 انتشرت فيديوهات ساخرة على الانترنت تشير إلى أنّ العيش في كندا اليوم يشبه امتلاك شقّة فوق معمل ميثامفيتامين. كندا ليست مكانًا مثاليًّا، لكنّها تعاملت مع أزمة كوفيد19 جيدًا، لا سيّما في كولومبيا البريطانية، حيث أعيش. تبعد فانكوفر ثلاث

ساعات فقط عن طريق البر شمال سياتل، حيث بدأ تفشي المرض في الولايات المتحدة. نصف سكّان فانكوفر من الآسيويين، وعادة ما تصل عشرات الرحلات الجويّة كلّ يوم من الصين وشرق آسيا. منطقيًّا، كان يجب أن يكون قد تضرّرت بشدّة، لكن نظام الرعاية الصحيّة كان يعمل بشكل جيد للغاية. طوال الأزمة، كانت معدّلات الاختبار في جميع أنحاء كندا خمسة أضعاف نظيرتها في الولايات المتحدة على أساس نصيب الفرد، عانت كندا من نصف معدلات الاعتلال والوفيات. مقابل كلّ شخص مات في كولومبيا البريطانية، لقي 44 شخصًا حتفهم في ولاية ماساتشوستس، وهي ولاية ذات عدد سكان مشابه. اعتبارًا من 30 يوليو، حتى مع ارتفاع معدلات الإصابة والوفاة بالفيروس في معظم أنحاء الولايات المتحدة، مع الإبلاغ عن 59629 حالة جديدة في ذلك اليوم وحده، سجّلت المستشفيات في كولومبيا البريطانية ما مجموعه خمسة مرضى كوفيد فقط.

داء الفجوة العرقيّة

يوجد في الولايات المتحدة دائمًا فجوة عرقيّة واقتصادية وثقافية وتعليمية بين المستهلك وموظفي تسجيل المغادرة، يصعب إن لم يكن من المستحيل ردمها. في كندا، التجربة مختلفة تمامًا. يتفاعل المرء إن لم يكن كأقران، بالتأكيد كأعضاء في مجتمع أوسع. والسبب في ذلك بسيط جدًا. قد لا يشارك الشخص الذي يسدّد الحساب في مستوى ثروتك، لكنّهم يعلمون أنّك تعرف أنّهم يحصلون على أجر معيشي بسبب النقابات. وهم يعلمون أنّك تعلم أنّ أطفالهم وأطفالك على الأرجح يذهبون إلى المدرسة العامّة نفسها في الحي. ثالثًا، والأكثر أهميّة، هم يعلمون أنّك تعلم أنّه إذا مرض أطفالهم، فسيحصلون على المستوى نفسه من الرعاية الطبية، ليس فقط لأطفالك، ولكن لأطفال رئيس الوزراء أيضًا. أصبحت هذه الخيوط الثلاثة المنسوجة معًا نسيجَ الديمقراطية الاجتماعية الكنديّة.

عندما سئل المهاتما غاندي عن رأيه في الحضارة الغربية، أجاب: «أعتقد أنّ هذه ستكون فكرة جيّدة». قد تبدو مثل هذه الملاحظة قاسية، لكنّها تعكس بدقّة وجهة نظر أميركا اليوم كما تُرى من منظور أي ديمقراطية اجتماعية حديثة. كان أداء كندا جيداً خلال أزمة كوفيد 19 بسبب عقدنا الاجتماعي، وروابط المجتمع، والثقة بين بعضنا البعض ومؤسّساتنا، ونظام الرعاية الصحية لدينا على وجه الخصوص، مع المستشفيات التي تلبي الاحتياجات الطبية للجماعة لا للفرد، وبالتأكيد ليس المستثمر الخاص الذي يرى كلّ سرير في المستشفى وكأنّه عقار مستأجر. مقياس الثروة في الأمة المتحضّرة ليس العملة التي تراكمت من قبل القلّة المحظوظة، بل قوى العلاقات

الاجتماعيّة وصداها، وأواصر المعاملة بالمثل التي تربط جميع النّاس في هدف مشترك.

الحال هنا لا علاقة له بالأيديولوجية السياسية، بل إنّ كلّ شيء له علاقة بنوعيّة الحياة. يعيش الفنلنديون على سبيل المثال، لفترةٍ أطول وهم أقلّ عرضة للوفاة في الطفولة أو أثناء الولادة قياسًا بما هو عليه الحال في أميركا. يكسب الدنماركيون تقريبًا الدخل نفسه بعد خصم الضرائب مثل الأميركيين، بينما يعملون بنسبة 20 في المئة أقل. يدفعون ضرائب 19 سنتًا إضافيّة عن كلّ دولار يتمّ كسبه، لكن في المقابل يحصلون على رعاية صحيّة مجانيّة، وتعليم مجاني من مرحلة ما قبل المدرسة إلى الجامعة، وفرصة للازدهار في اقتصاد السّوق الحرّ المزدهر مع مستويات منخفضة بشكل كبير من الفقر والتّشرّد والجريمة وعدم المساواة. العامل العادي يحصل على أجر أفضل، ويعامل باحترام أكبر، ويكافأ بالتأمين على الحياة، وخطط التقاعد، وإجازة الأمومة، وستة أسابيع من الإجازة مدفوعة الأجر في السنة. كلّ هذه الفوائد تلهم الدنماركيين فقط للعمل بجدية أكبر، حيث يعمل 80% من الرجال والنساء الذين تتراوح أعمارهم بين 16 و64 عامًا في القوّة العاملة، وهو رقم أعلى بكثير من مثيله في الولايات المتحدة.

يرفض السياسيون الأميركيون النموذج الاسكندنافي باعتباره اشتراكيّةً زاحفةً وشيوعيّةً خفيفةً، وهو أمر لن ينجح أبدًا في الولايات المتحدة. في الحقيقة، تنجح الديمقراطيات الاجتماعية على وجه التحديد؛ لأنّها تغذّي اقتصادات رأسماليّة ديناميكيّة تصادف أنّها تفيد طبقات المجتمع كلّها. قد تكون حقيقة أنّ الديمقراطية الاجتماعيّة لن تترسّخ أبدًا في الولايات المتّحدة، ولكن إذا كان الأمر كذلك، فهي لائحة اتّهام مذهلة، وما كان يدور في ذهن أوسكار وايلد عندما قال ساخرًا :«إنّ الولايات المتّحدة هي الدولة الوحيدة التي خرجت من الهمجيّة إلى الانحطاط دون المرور بالحضارة».

الدليل على هذا التدهور النّهائي هو الاختيار الذي اتّخذه العديد من الأميركيين في عام 2016؛ لإعطاء الأولويّة لسخطهم الشخصي، ووضع استيائهم فوق أيّ مخاوف بشأن مصير البلاد والعالم، حيث سارعوا إلى انتخاب رجل يتمتّع بمؤهّلاتٍ فريدة. كانت وظيفته هي رغبته في التعبير عن كراهياتهم، والتّحقّق من غضبهم، واستهداف أعدائهم، الحقيقيين أو المتخيّلين. يرتجف المرء عندما يفكّر في ما سيعنيه العالم إذا اختار الأميركيون في تشرين الثاني (نوفمبر)، وهم يعرفون كلّ ما يفعلونه، إبقاء مثل هذا الرجل في السلطة السياسية. ولكن حتى في حالة هزيمة ترامب المدوّية،

فليس من الواضح على الإطلاق أنّ مثل هذه الأمّة شديدة الاستقطاب ستكون قادرة على إيجاد طريق للمضي قدمًا. في السرّاء والضرّاء، كان لأميركا وقتها.

نهاية الحقبة الأميركية ونقل الشّعلة إلى آسيا ليست مناسبة للاحتفال، ولا وقت للشماتة. في لحظة الخطر الدولي، ربمّا تكون الإنسانيّة دخلت عصرًا مظلمًا يتجاوز الأهوال كلّها التي يمكن تصوّرها. أنقذت القوّة الصناعية للولايات المتحدة، إلى جانب دماء الجنود الروس العاديين، العالم حرفيًّا. المثل الأميركية، كما احتفل بها ماديسون ومونرو، ولينكولن، وروزفلت، وكينيدي، ألهمت في وقت من الأوقات وأعطت الأمل للملايين.

وإذًا، في الوقت الحالي، لدينا فقط حكم اللّصوص الخاص بدونالد ترامب. بين الإشادة بالصينيين على معاملتهم للإيغور، ووصف اعتقالهم وتعذيبهم بأنّه «الشيء الصحيح تمامًا الذي يجب فعله»، وبين تقديمه للنصائح الطبّيّة المتعلّقة باستخدام المطهرات الكيميائية للعلاج، قال ترامب بصراحة: «يومًا ما، يشبه المعجزة، ستختفي». كان يدور في ذهنه بالطبع فيروس كورونا، لكن كما قال البعض، ربمّا كان يشير أيضًا إلى اختفاء الحلم الأميركي.